

مقياس نقد المصادر القديمة في إفريقيا جنوب الصحراء

عنوان المحاضرة:

مراحل تطور النص التاريخي واشكالاته في إفريقيا جنوب الصحراء

■ تعتبر إشكالية المصادر التاريخية الإفريقية من الأطروحات الصعبة في تحديد معالمها وضبط مواضعها لانعدام عامل مهم الا وهو "النص التاريخي" الذي هو عبارة عن عمل هدفه تثبيت الاحداث التاريخية و تمجيد بطولات الابطال في تصور الاغريق او مدح ثقافات و حضارات الأمم المنتصرة على اقوام مغلوبة صنفت في مصف المجتمعات البربرية و البدائية و المتوحشة عند اللاتينيين. فاذا حاولنا معرفة ما إذا كان للأفارق نص تاريخي فانعدامها قد شكل معضلة في فهم مسار الشعوب الإفريقية عبر الزمن.

لا يخفى انا أولى بوادر الاهتمامات بإفريقيا كان على يد المؤرخين الاغريق والرومان، ثم جاء بعدهم المسلمون الذين حاولوا تسليط الأضواء على شمال إفريقيا التي كانت أراضيها قريبة لها فهذه العلاقات قد بدأت منذ العهد القديم الى غاية الفترات المتأخرة للحضارة الإسلامية.

■ فالمرحلة الأولى اقتصرت المعلومات التي تطرقت الى إفريقيا في واجهتها الشمالية من خلال العلاقات التجارية التي توصلت في عهد التجار و الرحالة الإغريقيون الذين وصفوا سواحلها من الشرق الى الغرب على غرار هيرودوت الذي اعتبر اب التاريخ، اذ قدم لنا بعض من المحاولات التي قام بها الملك المصري بساميتيك في ارسال بعثة الى عمق الصحراء لمعرفة خباياها ثم تناول الموضوع مؤرخ اخر روماني سالوستيوس في كتابه حروب يوغرطة و تعرض الى مسالة الجيتول المنتشرون في الصحراء الكبرى و هم حسب بعض الأطروحات اسلاف التوارق و لا ننسى بعض من أصداء في رحلة الرحالة القرطاجي حنون الذي قام اثناء رحلته في تأسيس محطات تجارية في الجهة الغربية لسواحل إفريقيا و قدم هو أيضا وصفا لشعوب هذه المناطق و ما ميز هذه المحاولات و المعلومات التي وصلت اليها انها اتسمت في اشكالها يطابعها الأسطوري و عدم دقتها.

■ في المرحلة الثانية ارتقت هذه المعلومات حول القارة الإفريقية و تغذت بمعطيات جديدة في عهد الحضارة الإسلامية عندما توغل تجارها و رحالتها كذلك لتوصيل رسالة الإسلام في هذه المناطق و استطاعوا اجتياز حاجز الصحراء بواسطة الجمل الذي ساهم في تطوير التجارة و نقل الأفكار فتجلت هذه الصورة في مؤلفات العديد من المؤرخين

مثل المسعودي (توفه 950 م) و البكري (1029-1094) و الادريسي (1154) و ياقوت الحموي (1200 م) و أبو الفدى (1273 م) و ابن بطوطة (1304-1369) و العمري (1301-1349) و حسان ابن محمد الوزان (1494-1552)، هؤلاء كانوا بمثابة اللبنة الأولى في بناء تاريخ افريقيا بصفة موضوعية خاصة فيما تعلق الامر بتاريخ السودان الغربي و الأوسط ما بين القرنين IX—XV م، الا ان هذه الكتابات اقتصرت هي الأخرى على الوصف دون التطرق الى البحث الدقيق و العمل المنهجي و افتقرت الى التناسق و التركيب المنطقي اذ الكثير من المعلومات تحتاج الى التمهيص و الدقة و هذا لانعدام اليات النقد اذ يجهل ان كان الراوي قد نقل وصفه من جراء ملاحظاته الشخصية ام نقلها لنا عن طريق وساطة و كان نموذج ابن بطوطة مؤشرا في ذلك.

بالمقابل اعتبر ابن خلدون من المؤرخين الأوائل الذين اعتمدوا في استقراءهم للتاريخ على المنهج الاستقرائي في معالجته لتاريخ افريقيا وللعالم المشرقي وتكمن أهمية ابن خلدون انه خصص في كتابه الشهير تاريخ البربر جزء من فصوله الى مملكة المال التي عاصرها حيث اعتمد في نقله للأحداث على العمل الشفوي الطريقة التي سادت في حينه و ركز عليها في بناء تاريخ افريقيا.

■ اما في المرحلة الثالثة و مع ظهور التواجد الأوروبي في القارة فان معظم تصوراتهم لإفريقيا انحصرت في فكرة ثابتة مفادها " انعدام التاريخ " خاصة منطقة جنوب الصحراء الكبرى و عليه فان الدراسات دخلت في اطار اختصاص العمل الاثري و اللغوي و الانثروبولوجي الا ان هذه العلوم من وجهة أخرى في بعدها المنهجي اعتمدت على تطبيق مبادئ علمية برهنت عن فعاليتها في أماكن معينة من العالم في دراسة الشعوب البدائية التي تقطن جزر البحر الهادي و شعوب غابات الامازون و غيرها من العوالم الجديدة او في تفضيل دراسة الشعوب من خلال تركتها الاثرية القديمة من خلال بنائها و كتاباتها القديمة على غرار الحضارة المصرية و لم ينجح هذا المنهج في افريقيا.

غير ان العمل الاثري اخذ منعطفًا حاسمًا في افريقيا خاصة في افريقيا الشرقية والجنوبية لما اهتم الأثريون بأصول الانسان خاصة مع اعمال ليكي ورايمون دارت عندما اكتشفوا أولى سلالات بشرية في القارة في موقع اومو بإثيوبيا لكنه و رغم ذلك فلم تسلم هذه المقاربة من الانتقادات بحكم انها تعرضت فقط على صيرورة هذه السلالات دون ربطها بتلك الشعوب الافريقية المعاصرة مما أدى الى الوصول الى مفارقات لا توضح علاقة هذه الحفريات بواقع مجتمعاتها الحاضرة.

من جهة أخرى فقد لعبت كل من الدراسات اللغوية و الانثروبولوجية دورا حاسمًا في إرساء أولى معلومات جديدة بالنسبة لتاريخ الافارقة جنوب الصحراء خاصة و ان طبقة متخصصيها الاوربيون قد وجدوا في الأرض الواقع حقلًا خصبا

في تطوير تصوراتهم إزاء الثقافات الأفريقية فادركوا ان هناك تواصل و استمرارية في عناصرها الثقافية منذ العهود القديمة فانتشرت تقاريرهم في مجالات عديدة من حياة الافارقة فكانت بمثابة نصوص استلهم منها النظم الاجتماعية و الثقافية للأفارق و رغم ذلك فلم تخلو هذه التقارير هي الأخرى على مغالطات و خيمة بفعل النظرة الاستعمارية التي طغت في تلك الفترات على غرار رأي سليجمان في كتابه "الاجناس في افريقيا" و الذي اعتبر مكوناتها الثقافية و الحضارة قد أتت من الخارج في خضم نظرية الأصول الحامية التي استمدت من التوراة و ان الانسان الافريقي لم يصنع ماضيه و مصيره بأيديه بل ارجع الفضل الى عناصر خارجية هي العناصر الحامية و قد سادت هذه النظرة منذ القرنين التاسع عشرة و القرن العشرين.

من تقديم يوغرطة حدادو

استاذ متخصص في فترات ما قبل التاريخ وتاريخ الحضارات القديمة